جانب من المآثر الحضارية للدولة الأموية :

كان للحركة العلمية في العصر الأموي دور كبير وبارز جداً في التمهيد للنهضة العلمية التي سادت في العصر العباسي. فعلى الرُّغم من أن العصر الذهبي للعلوم والحضارة الإسلاميَة كان في العهد العباسيّ فقد كان للأمويين دورٌ بارز في التمهيد لهذا الازدهار والتهيئة له، إذ أنهم أرسوا أسس التراث العلميّ الذي بنى عليه العباسيون حضارتهم. ومن أهم هذه التطوُّرات التي هيأت للنهضة العلمية العباسية حركة التعريب في عهد عبد الملك بن مروان، الذي جعل من اللغة العربية لغة رسمية للدولة أصبحت تستخدم في كل أصقاعها من المشرق إلى المغرب، كما ساهمَ الوليد كثيراً أيضاً بإنشائه للمدارس والمستشفيات تحت رعاية الدولة التي ساهمت هي الأخرى في النهضة الإسلامية اللاحقة. وقد كان من أهم الإنجازات في تطوير الحركة العلمية في العصر الأمويّ تدوين العلوم وتعريبها للمرَّة الأولى، وهو ما أتاح لعلماء العرب والمسلمين الاطلاع عليها بسُهولة، كمان أن اتساع الدولة ودخول شعوب جديدة في الإسلام أتاح التعرف على حضاراتها والاستفادة من تلك المعارف في تطوير الحضارة الإسلامية.

حركة التدوين :

ثم خطت الحركة العلمية خطوة كبيرة في ذلك الوقت، ببدء حركة تدوين العلوم، ولم يكن المسلمون يفعلون ذلك من قبل، وإنما اعتمد الصحابةُ على الذاكرة في الحفظ، والذين عُرف عنهم أنهم دَوَّنوا بعضَ أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم من الصحابة عدد قليل، كأبي هريرة، و"عبد الله بن عمرو بن العاص" الذي سمح له النبي صلى الله عليه وسلم بتدوين أحاديثه فدوَّنها في صحيفة كان يقول عنها: "الصادقة"، وهذه الصحيفة اشتملت على ألف حديث وكان عبد الله بن عمرو يفخر أن ليس بين الرسول وبينه فيها أحد.

ومنذ منتصف القرن الأول للهجرة تقريبًا بدأت حركة التدوين بداية متواضعة، فيُروى أن "معاوية بن أبي سفيان" (المتوفى سنة 60هـ) أمر بتدوين ما يرويه له في مجلسه "عُبيد بن شَرِيّة" من تواريخ ملوك "اليمن" القدامى وغيرهم، وكان "معاوية" مولعًا بمعرفة تواريخ الأمم السابقة، وأن "عبد العزيز بن مروان" الوالي على "مصر" (65-85هـ) أرسل إلى "كثير بن مرة الحضرمي" أن يكتب له ما سمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أحاديث "أبي هريرة رضي الله عنه " فإنها موجودة عنده.

ثم جاءت الخطوة الحاسمة في التدوين، حين أمر "عمر بن عبد العزيز" أثناءَ خلافته (99-101هـ) "أبا بكر بن حزم" الوالي على "المدينة" –وكان من العلماء– أن يدوِّن أحاديثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، خوفًا من ضياع العلم وذَهَابِ العلماء، ثم تتابعت حركة التدوين، فدوَّن "محمد بن مسلم بن شهاب الزُّهْري" (ت 124هـ) و"يزيد بن أبي حبيب المصري" وغيرهما، وانتقل التدوين إلى العلوم الأخرى، فدوِّن علمُ الفقه والتفسير وغيرهما.

وشجع الخلفاء الأمويون الحركة العلميةَ بصفة عامة، وحركةَ التدوين بصفة خاصة، وبدأ في عصرهم ظهورُ طبقة المعلمين؛ لأنَّ الخلفاءَ أنفسَهم كانوا مهتمين بتعليم أولادهم، وبخاصة العلومَ الإسلامية، فاختاروا لهذه المهمة أصلحَ المعلمين الذين كانوا يسمون أيضًا بالمؤدبين، ولم تكن مهمتهم تعليمية فحسب، بل كانت تربوية أيضًا.

ومن أشهر هؤلاء المعلمين: "دِغْفَلُ بن حَنظلة الشيباني"، اختاره "معاويةُ بن أبي سفيان" لتعليم ابنه "يزيد" وتهذيبه. و"الضحاكُ بن مُزاحم" (ت 102هـ) و"عامرُ بن شَرحبيل الشَّعْبي" (ت 104هـ) و"إسماعيلُ بن عُبيد الله بن أبي المهاجر" (المتوفى 132هـ)، وهؤلاء الثلاثةُ من كبار علماء التابعين، واختارهم "عبد الملك بن مروان" لتعليم أولاده وتأديبهم. وقد حذا أشرافُ الناس والأغنياء حَذْوَ الخلفاء في تعليم أولادهم على أيدي مربين ومؤدبين، مما أعطى دفعةً للحركة العلمية في ذلك العصر.

وعلى الرغم من ضياع المدوَّناتِ والمؤلفاتِ التي كُتبت في العصر الأموي، فإن معظمَ محتوياتها وصلت إلينا في المؤلفات الكثيرة التي ألفت في العصر العباسي الذي يبدأ سنة 132هـ فمرويات "الطبري" (ت 310هـ) عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وسيرتِه أخذها ممن رواها عن كُتَّاب المغازي والسيرة الأوائل الذين ضاعت مؤلفاتهم، مثل "أبان بن عثمان بن عفان" (ت 105هـ)، و"عروة بن الزبير" (ت 93هـ)، وغيرهما، والعلوم التي تطورت في عهد الأمويين منها علم التفسير، وعلم الحديث النبوي، والفقه، وعلوم اللغة العربية، وعلم السيرة النبوية والمغازي والتاريخ.

1 ـ علم التفسير: هو العلم الذي يبحث في بيان معاني آيات القرآن وأسلوبه وبيانه، إلى غير ذلك مما حفلت به كتب التفسير من مصطلحات هذا العلم كالمجمل والمفصّل، والمحكَم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول. ومع كون الصحابة –رضوان الله عليهم– أقدرَ الناسِ على فهم القرآن الكريم، فإنهم اختلفوا في فهمه على حسب اختلاف قُدراتهم العقلية، واشتهر منهم بالتفسير وفهم القرآن الكريم: الخلفاء الراشدون، و"ابنُ مسعود" و"ابنُ عباس"، و"أبيُّ بن كعب"، و"زيدُ بن ثابت".

وعن هؤلاء وغيرهم تلقى التابعون، وعلى رأسهم: "مجاهدُ بن جبر" (ت 102هـ) و"عطاءُ بن أبي رَباح"، و"عِكْرمةُ مولى ابن عباس"، و"سعيد بن جُبَيْر" (ت 95هـ)، و"سعيدُ بن المسيِّب" (ت 93هـ)، و"الحسنُ البصري" (ت 110هـ)، و"محمد بن سيرين" (ت 110هـ)، وبعض هؤلاء ألفوا كتبًا في التفسير، لكنها ضاعت ولم تصل إلينا، كما ضاعت كتبُ التفسير أُلِّفت بعد عصر التابعين، ومنها ما نُسب إلى "سفيانَ بن عُيينة" (ت 198هـ)، و"وكيع بن الجَرَّاح" (ت 197هـ)، و"عبد الرزاق بن هَمَّام الصنعاني" (ت 111هـ)، وكثيرٍ غيرهم.

وجملة القول أنه لم يصل إلينا كتابٌ في التفسير يرجع إلى العصر الأموي، وأولُ كتاب في التفسير وصل إلى أيدي الناس هو كتاب "معاني القرآن" للفرَّاء المتوفى سنة (207هـ)، ثم

توالت بعده مُطوَّلات كُتب التفسير، لعل من أشهرها تفسير الإمام "الطبري" المتوفى سنة (310هـ)، المعروف باسم "جامعُ البيان عن تأويل آي القرآن."

2 ـ علم الحديث: وقد حَرَص الصحابةُ على حفظ كل ما يسمعونه من النبي صلى الله عليه وسلم، وكانوا يسألونه ليبينَ لهم ما غَمُضَ عليهم فَهْمُه من القرآن، وهذا من وظائفه لقوله تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: 44]، وقد أمرهم الله تعالى باتِّباع النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما يقول أو يفعل، لقوله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} [الحشر: 7]، وحذَّرهم من مخالفته صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: 63]، وسار المسلمون على نَهْج الرسول صلى الله عليه وسلم، وتلقَّفُوا كلَّ ما يتلفظ به يحفظونه عن ظهر قلب، ويعملون به. وكان الحديثُ هو أولُ العلوم التي اشتغلوا بها، لكنهم لم يدوِّنوه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم إلا القليل النادر ويُروى أنه هو نفسُه نهاهم عن ذلك، لئلا يختلطَ بالقرآن، فقال: «لا تكتبوا عني، فمن كتب عنيَ غير القرآن فَلْيَمْحُه». [صحيح مسلم]، بالإضافة إلى أن الصحابةَ أنفسَهم كانوا يتحرَّجون من الإكثار في رواية الحديث، تهيبًا وخوفًا من الخطأ والنسيان.

وقد ظلت أحاديثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يتناقلها العلماءُ مشافهةً جيلًا بعد جيل حتى نِهايةِ القرنِ الأول الهجري، وإن دوَّن بعضُ الناس أحاديثَ رسولِ الله كعبد الله بن عمرو بن العاص الذي أذن له النبي صلى الله عليه وسلم بكتابة الحديث في حياته، وما رواه البخاري من أنَّ (أبا شاه اليمني)، التمس من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتبَ شيئًا من خطبته عام الفتح، فقال: «اكتبوا لأبي شاه»، ثم أمر الخليفةُ "عمر بن عبد العزيز" بتدوين الحديث، خوفًا من ضياعه بموت العلماء الذين يحفظونه، فكتب إلى "أبي بكر بن حزم" (والي المدينة) وغيرِه من ولاة الأقاليم، وطلب منهم جَمْعَ أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وتدوينِها، ومن ثَمَّ بدأ المسلمون يُقْبِلون على ذلك، وبمُضِيِّ الزمن تضاعفتْ جهود العلماء في هذا الميدان، ومن أشهر الرجال الذين اشتغلوا بجمع الحديث وروايته وتدوينه في العصر الأموي: "محمدُ بن مسلم بن شهاب الزُّهْرِي" المتوفَّى سنة (124هـ)، و"ابن جُرَيْج المكي" المتوفى سنة (150هـ)، و"ابنُ إسحاق" المتوفى سنة (151هـ)، و"مَعْمَرُ بن راشد اليمني" المتوفى سنة (153هـ)، و"سفيانُ الثوري" المتوفى سنة (161هـ)، و"مالكُ بن أنس" المتوفى سنة (179هـ)، غير أن هؤلاء كلهم عدا "ابن شهاب الزهري" عاشوا صَدْرَ حياتهم في العصر الأموي وبقية حياتهم في العصر العباسي.

لقد اهتم الأمويون بالعلوم وانتشرت مراكز الحياة العلمية في مكة و المدينة و البصرة و الكوفة و دمشق و الإسكندرية و الفسطاط وكثير من المدن في العصر الأموي فمثلا في مكة و المدينة برزت علوم القرآن و علم النحو الذى وضع قواعده أبو الأسود الدؤلي ثم سار على دربه في البصرة كل من يحيى بن يعمر النحوي و الخليل بن أحمد الفراهيدي ، وكان

تدوين الحديث الشريف على أيدى علماء شرفاء مثل مالك بن أنس و محمد بن مسلم بن شهاب الزهري الذين أخذوا الأحاديث عن أبى سعيد الخدري و أبى هريرة وغيرهم من الصحابة الأجلاء ورواة الحديث الثقات .

واهتم الأمويون أيضاً بالعلوم الدنيوية فقام علم التاريخ على يد وهب بن منبه و عروة بن الزبير بن العوام و محمد بن شهاب الزهري وغيرهم، ونشأت الكيمياء بمفهومها العلمي والتطبيقي البعيد عن الخرافات و السحر، وكان الدور الأكبر في ذلك للأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان وبرزت من المدن في علم الكيمياء الإسكندرية و نيسابور .

وإضافة لذلك نمت الترجمة في دمشق و الإسكندرية واشتهر من المترجمين المسلمين فى ذلك العصر حسان بن أبى سنان الذى كان يكتب بالعربية و الفارسية و السريانية، وعموماً كان النظام التعليمي في العصر الأموي منحصراً في حلقات المساجد التي اشتهرت منها حلقات كل من عبد الله بن عباس في مكة و ربيعة الرأي فى المدينة و الحسن البصرى في البصرة .

تعريب الدواوين :

كانت الدواوين تكتب باللغة العربية منذ إنشائها، ما عدا دواوين الخراج التي كانت تستخدم اللغات الأجنبية ، حيث كان ديوان الخراج في العراق يعمل باللغة الفارسية ، وفي الشام ومصر باللغة اليونانية ، وظل هذا الوضع قائما إلي أواخر عهد عبد الملك بن مروان 65 - 86 هـ ـ ، والذي رأى أن إبقاء أهم ديوان من دواوين الدولة وهو ديوان الخراج المهيمن علي الشئون المالية يستخدم لغات غير عربية أمر شاذ ويجب إنهاؤه ، وإذا كانت الضرورة قد فرضت عند نشأة الدولة الإسلامية لقلة خبرة العرب المسلمين بشؤون المال والجباية من ناحية ولانشغالهم بالجهاد والفتح من ناحية ثانية ، فإن تلك الضرورة قد زالت وظهر في العرب ومواليهم مهرة في هذه الأمور، كما أن الدولة استعادت وحدتها وتخلصت من كل مناوئيها وبدأت تشهد عهد أمن واستقرار ،

لذلك قرر الخليفة عبد الملك تعميم استخدام اللغة العربية في دواوين الخراج ، وأمر بترجمتها فكلف سليمان ابن سعد الخشني الذي كان يتقلد له ديوان الرسائل وكان يجيد اللغة اليونانية بنقل ديوان الشام إلي اللغة العربية ، فنقله في عام كامل ، وقد أعطاه عبد الملك خارج الأردن لمدة عام كامل مكافأة له ، مما يدل علي أهمية هذا العمل واهتمام الخليفة بإنجازه تعريب الدواوين

العملة الأموية :

كانت النقود المتداولة في صدر الإسلام يتم ضربها في غير البلاد الإسلامية، وفي عهد الخليفة الأموي "عبد الملك بن مروان"، بدأ سَك الدنانير سنة 65 هـ - 684 م على طراز العملات البرونزية البيزنطية والتي كانت تمثل هرقل وولديه وكانت تضرب بدار السك في

مدينة الإسكندرية وقد بدأت أيضًا مراحل تطور العملة الإسلامية الحقيقية في عهد الخليفة "عبد الملك بن مروان" 74 هـ - 693 م فقد أصبح للسكة مراكز خاصة بها تتبع السلطة الحاكمة وتكون تحت إشراف القضاة بإضافة شهادة التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله" على العملات، كما ألغى في هذه المرحلة صورة هرقل وولديه واستبدل بها صورته التي أُحيطت بكتابات كوفية بشكل دائري ويُصور "عبد الملك بن مروان" على هذه العملات وبيده سيفه رمز الإمامة والجهاد في سبيل الله وفي المرحلة الأخيرة لتطور العملة في عهده أصبحت العملات تعكس خصائص الفن الإسلامي وأصبحت عربية خالصة بعيدة عن التأثيرات البيزنطية.

تأسيس المدن :

1 ـ مدينة القيروان: أسسها عقبة بن نافع الفهري في "إفريقية" (سنة 50-55هـ) في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان (41-60هـ) وهو أحد القادة الفاتحين لبلاد المغرب وقد أصبحت هذه المدينةُ عاصمة الشمال الإفريقي كلِّه في عهد الأمويين، ومركزًا من أعظم المراكز الحضارية الإسلامية.

2 ـ مدينة تونس : أسسها حسان بن النعمان سنة (84هـ) وهو أحد القادة الكبار الذين شاركوا في فتح بلاد المغرب، ويُعدُّ الفاتحَ الحقيقي لهذه البلاد لأنَّه قام ببعض الأعمال الإنشائية والإدارية المهمة كان لها الأثر البعيد في تثبيت الفتح الإسلامي في بلاد المغرب،

3 ـ مدينة واسط: في العراق أسسها الحجاج بن يوسف الثقفي (سنة 83هـ)، وتقع بين البصرة والكوفة، وبني وسطها قصرًا فخمًا بجوار المسجد الجامع، وجعل للقصر قبة خضراء كبيرة وعالية، وكان الاهتمام بتحصين المدينة واضحًا في الرؤية التخطيطية لها، فأنشئت الأسوار والخنادق ويكشف التوزيع الداخلي لخطط المدينة عن الرؤية الهادفة لإنشاء مركز حضاري متكامل، يصلح ليكون مركزًا إداريًّا يمكِّن الحجاج من فرض السلطة الأموية على العراق، ويقضي على الفتن والثورات التي كانت تهدد الأمويين في هذه البلاد، ومن المدن التي أنشأها الأمويون -بالإضافة إلى ما ذكرنا- مدينة "الرُّصافة" بالقرب من "الرَّقّة" في العراق، أنشأها الخليفة "هشام بن عبد الملك" (105-125هـ) وأنشأ عبد العزيز بن مروان مدينة حلوان في مصر وأنشأ "الحكم بن عوانة الكلبي" –وهو من المجاهدين الفاتحين– مدينة "المحفوظة" في السند. وأنشأ عُمر بن محمد بن القاسم الثقفي "مدينة المنصورة" في السند أيضًا. وأبوه "محمد بن القاسم" هو الذي أتم فتح هذه البلاد .